

طه حسين وكتاب الأيام

مسعى الترجمة الذاتية والبنية السردية

•المؤلف: لوك فيلي دهوفولسLuc-Willy DEHEUVELS
•المصدر: مجلة دراسات العالم الإسلامي والمتوسط (REMMM)، جامعة أكس مارسيليا(UniversitéAix Marseille)،عدد ٩٥ - ٩٨، ٢٠٠٢، ص ٢٦٩ - ٢٩٥.
•نقل النص إلى العربية: عبد الرحيم الرحوتي، أستاذ الألسن وعلم الترجمة، المعهد العالي الدولي للسياحة، طنجة، المغرب.

طه حسين، الذي قال عنه جاك بيرك بأنه عاش «قضية دريفوس في العالم العربي» (جاك بيرك، ١٩٧٧، ص ٢٩)❖، هو بلا منازع رجل الأدب العربي المعاصر الذي أثار ردود الفعل الكبرى، وأن النظرة الموجهة إليه تتقلب باستمرار بين التقريض والتشنيع، بين التبجيل والقدح. في مواجهة كل هذا، أعد المفكر والكاتب المصري خطابه الخاص به ومن ضمن أعماله،ينظر عادة إلى عدد منها باعتبارها ترجمات ذاتية. يتعلق الأمر بحسب التسلسل الزمني:

١.«الأيام» (ثلاثة أجزاء بين ١٩٢٦ و١٩٥٥).

٢.«أديب» (١٩٣٥).

٣.«في الصيف» (١٩٣٣) يتناول سنوات ١٩٢٤-١٩٢٨ من حياة المؤلف.

٤.«من بعيد» (١٩٣٥) بخصوص سنة ١٩٢٣.

٥.«رحلة الربيع» (١٩٤٨) يتحدث عن سنوات ١٩٣٥، ١٩٣٩، ١٩٤٦، ١٩٤٨؛ ثم أعيد نشر الكتاب مع إضافة نص «في الصيف» تحت عنوان «رحلة الربيع والصيف» (١٩٥٧).

٦.«صوت باريس» (١٩٤٣)

٧.إضافة إلى النص الأخير في كتاب «المعذبون في الأرض» (١٩٤٩).

تشارك هذه النصوص كلها في «مسار ترجمة ذاتية»، حتى نعيد استعمال عبارة جاك بيرك، الذي يرى فيها معيارا حاسما في أعمال طه حسين. مع ذلك، فإن القائمة الموضوعة تستدعي عددا من الملاحظات:

١.الأعمال التي احتفظ بها المؤلف كحكايات سفر هي كتابات تتأرجح بين الذكريات والمحاولات ونقد الفن.

٢.أديب الذي صنف في ١٩٣٥، يطرح مشكلا بالنسبة لوضعيته. ينظر إليه في الغالب باعتباره تحليلا روائيا؛ وبالنسبة لآخرين، قد يكون المصراع الثالث في ترجمة ذاتية بدأت مع الجزأين الأولين من «الأيام»[١]. طه حسين نفسه حافظ على هذا الالتباس بكثير من البراعة بإهداء كتابه إلى رجل، هذا «الأديب» الخيالي أو الواقعي؟ لا ندري، الذي لا يريد أن يفصح عن اسمه الحقيقي. يزداد الدوار عندما يقول المؤلف عنه:

«الكتاب الذي أحبه، الذي أفضله، لا يروق للجمهور: يتعلق الأمر بـ «أديب» ... ميلي إليه يأتي من كوني وضعت فيه كثيرا من حياتي الشخصية».

يكمن الغموض بكامله في الحدود الدقيقة التي تشير إليها صفة «كثيرا»، مع ما يشير إليه ذلك بالضرورة من وجود إعادة بناء روائية مضطلع بها، حيث يختلط التخييل بالاعتراف. يمكن تسليك ربطة الخيوط إذا اعتبرنا مع شارل فيالCharles Vial (١٩٨٦، ص ١٨٦)أن «أديب يمثل ازدواجية في شخصية المؤلف، حيث النصف المصري يقف عاجزا أمام غرق الجزء الأوربي في الجنون». ولكن هل هذه هي الرسالة التي كان يريد أن يمررها هذا الذي، ثلاث سنوات بعد ذلك، دعا في «مستقبل الثقافة في مصر»إلى تبني النموذج الأوربي بشكل واسع.

أخيرا، نفس السؤال يطرح مع «الأيام» هل يتعلق الأمر برواية أم بترجمة ذاتية؟ بحكاية مسار متخيل لا غير، أو بمقاربة من لدن طه حسين لما كان، بحسب رأيه، مساره الخاص به؟ غياب ميثاق ترجمة ذاتية في البداية يعوضه «الإعلان النهائي» على شكل إهداء من قبل الراوي للجزء الأول لابنته والثاني لابنه. أما الجزء الثالث فقد صدر أولا، سنة ١٩٦٧ في بيروت، في حياة المؤلف، وبالتالي يمكننا افتراض أن ذلك حصل بموافقته، تحت عنوان: «مذكرات طه حسين»، قبل أن يصدر كجزء ثالث من «الأيام» في ١٩٧٢ فقط. عند مقارنته بالسيرة الذاتية الحقيقية لطه حسين، فإن الحكاية تلتقي مع ما هو مشهود به ومحدد التواريخ ومُتحقق من صدقيته. كذلك، فإن العديد من الذين عندما قاموا بإعداد ترجمة لطه حسين اكتفوا بالرجوع إلى هذا التأليف مع ترتيب وتحديد تاريخ كل واقعة لأن«الأيام»في اعتبارهم هي حكاية حقيقية وموضوعية للواقع. على خلاف ذلك، يرى آخرون في الكتاب رواية، بل أكثر من ذلك نقطة الانطلاق الحقيقية لكل الأدب الروائي المصري [٢]. عجز التحليلات عن الوصول إلى أحكام جازمة ونهائية يأتي من التساؤل الذي يمس طبيعة الترجمة الذاتية للكتاب: لا أحد ينكر ذلك. السبب الأساسي يعود لاستحالة التمييز التام بين «الترجمة الذاتية» و«الأدب». هذا ما شعر به سعد الخادم عندما سجل:

«نقل طه حسين قصة حياته الشخصية إلى مجال الترجمة الذاتية، إلى مجال الأدب المحض» (١٩٨٥، ص ٢٩).

«الأيام» هي في نفس الوقت ترجمة ذاتية وفعل أدبي [٣]، شأنها شأن كل بحث في موضوع الترجمة الذاتية، فإن تلك التي أنشأها طه حسين يحركها مشروع، الذي سنعمل على مقاربته بحسب المحاور التالية:

الكتابة وأفق الانتظار

ما قبل النص [٤]

في حالة طه حسين، فإن عاهته (كان كفيفا) تجعل أننا لا نتوفر على مسودات. زيادة على ذلك، فإن تقنيته في الكتابة كانت تتمثل في إملاء دفعة واحدة صيغة يؤكد أنها نهائية، من دون إعادة قراءة ولا تصحيح.

«ليس من عادتي التفكير فيما أريد كتابته، ما عدا قبل البداية. إلا أنني، عندما أملي، لا أفكر إطلاقا في أي شيء آخر غير الموضوع الذي يهمني. لا شيء أبغض إلى نفسي من إعادة قراءة ما أمليته. **أشعر عندما أنتهي من تحرير مقال أو كتاب، بأنني تخلصت من حمل ثقيل سيكون من الصعب علي تحمل ثقله من جديد**»[٥].

يؤكد هذا الذين عاشروا طه حسين، بشكل خاص من اشتغلوا معه ككتاب. بالنسبة لـ «الأيام»، فإن الجزء الأول قد يكون أُملي في ستة أيام، بحسب محمود الدسوقي الذي اشتغل مدة كاتبا مع طه حسين (الدسوقي، ١٩٩٧، ص ١٠٠)، أو تسعة أيام بحسب زوجته (سوزان حسين، ١٩٧٤، ٧٨ – ٧٩)، مع غياب كل ما من شأنه الإفادة بأن النص خضع للمراجعة في وقت لاحق. مع ذلك، إذا لم يكن هناك وجود لمسودات، هناك كتابات يجب أخذها بعين الاعتبار، وبشكل خاص «في الصيف» (١٩٣٣)، «أديب» (١٩٣٥)، التي تتقاطع بعض فقراتها مباشرة مع «الأيام» وبهذه الصفة يمكن أن تجد لها مكانا في دراسة تراكب الطبقات وسياق تكون الكتاب.

أخيرا، حتى وإن كان تحرير الجزء الأول من «الأيام» لم يتطلب إلا ستة أيام، فإن المدة التي تفصل بين وضع تصور الجزء الأول والجزء الثالث هامة بشكل لافت:

ظهر الجزء الأول على شكل حلقات متسلسلة شهريا في مجلة الهلال بين ١٢/٠١/١٩٢٦ و٠١/٠٧/١٩٢٧، قبل أن يصدر في كتاب سنة ١٩٢٩.

الجزء الثالث، ظهر على شكل حلقات أسبوعية في مجلة «آخر ساعة» من ٣٠/٠٥/١٩٥٥ إلى ٢٦/٠٦/١٩٥٥. ثم صدر في بيروت بعد أثني عشر عاما، في ١٩٦٧، تحت عنوان: «مذكرات طه حسين»؛ ولم ينشر باعتباره الجزء الثالث من «الأيام» إلا سنة ١٩٧٢ في القاهرة.

انقضت تسع وعشرون عاما بين تحرير الجزء الأول وتحرير ما سيصبح الجزء الثالث من «الأيام»؛ ست وأربعون سنة إذا واصلنا الحساب إلى التاريخ الذي صدر فيه نص ١٩٥٥ على شكل كتاب مستقل، ثم كجزء ثالث من «الأيام». عندما حرر الجزء الأول، كان طه حسين يبلغ من العمر ٣٧ سنة؛ في ١٩٥٥ كان عمره ٦٤ سنة و٨٣ سنة في ١٩٧٢. هل يمكن للمشروع المتبع أن يظل هو نفسه؟ فوق ذلك، هل يمكن للكتاب أن يتطلع إلى تقديم وحدة حقيقية؟ الصورة التي ترسمها بياتريس ديدييBéatrice Didier عن كتاب اليوميات الحميمية يمكن أن تنطبق على كتاب «الأيام»:

«يصف وهو ذاته يتغير كل يوم رجلا الذي، موازاة مع ذلك، ليس هو نفسه من يوم لآخر[...] «الأنا» الذي ينظر يميل إلى أن يصبح خارج الزمان، أن يحكم على الآخر بربطة جأش، كما لو كان يشارك في نوع من الخلود الإلهي. وَهْم بكل تأكيد، لأن «الأنا» الذي ينظر يتغير أيضا، ولكن يلزم أن يحاول تثبيت ما يهرب لتفادي الدوار، وأنه من السهل تثبيت النظر قياسا بالمادة التي يقع عليها هذا النظر» (الصورة الذاتية واليوميات الحميمية،١٩٨٣، ص ١٧٣)

من جهة أخرى، إذا كان الإنسان يتغير، فإن أفق الانتظار يتطور أيضا وليس هو نفسه بالمرة في ١٩٢٦، ١٩٣٩ أو ١٩٥٥.

أفق الانتظار والكتابة

الجزء الأول من «الأيام»: ١٩٢٦ / ١٩٢٧

قبل ١٩٢٦، لم يكن طه حسين معروفا بشكل واسع خارج دائرة النخبة المصرية. كان يدرس منذ ١٩١٩ في الجامعة، ولكن وضعيته كانت هشة نسبيا ولم تبدأ في الاستقرار إلا في ١٩٢٥، عندما عينته الجامعة في كرسي أستاذ اللغة العربية وآدابها.

لم يكن قد نشر إلى حد الآن إلا أبحاثا علمية: أطروحتاه، ترجمات عن الإغريقية والجزأين الأولين من حديث الأربعاء وهو كتاب في النقد الأدبي. في ١٩١٤، أثارت أطروحته عن المعري بعض الاضطراب عند الأزهريين، ولكن الأمور لم تتطور إلى ما هو أبعد[٦].

موازاة مع ذلك، فإن طه حسين الذي اشتهر أكثر في بداية العشرينيات، كان هو طه حسين المجادل الذي كان يضع قلمه في خدمة قادة حزب الأحرار الدستوريين لتعاطفه معه،. وفي خدمة الصحيفة الناطقة بلسانهم، «السياسة». هكذا، سيقود حملة لصالح إقرار الدستور في مصر، ثم عارض التعديلات التي أدخلت على المشروع الأول لدستور ١٩٢٣. يرتبط بهذا الالتزام صدور كتاب في السياسة مترجم عن الإغريقية «نظام الأثينيين» (١٩٢١). كان طه حسين ينوي تأليف كتاب عن الديمقراطية، وهو الكتاب الذي حرر له المقدمة، إلا أن الأحداث الخطيرة لسنة ١٩٢٦ منعته من مواصلة مشروعه (عبد الغني، ١٩٨٦).

كان طه حسين قد هاجم بشدة كل الحكومات ذات التوجهات الوفدية التي توالت على الحكم في بداية العشرينيات. تميزت صحيفة «السياسة» بمقالات عنيفة بشدة ضد وزارة سعد زغلول إلى حد الإقدام على مصادرة عددي الصحيفة الصادرين في ١٠ و١٢ يونيو ١٩٢٤،وتقديم المحررين للعدالة بشكاية من سعد زغلول نفسه. فتح تحقيق مع محمد حسين هيكل، رئيس التحرير وطه حسين وحافظ عفيفي وتوفيق دياب. حكم على هيكل بأداء غرامة مرتفعة، أما طه حسين فأخضع للاستجواب مدة ساعة كاملة، ولكنه التزم الصمت. واصلت لجنة التحقيق تحرياتها عن حياته وكتاباته الأخرى بدون نتيجة: مقالاته الأشد عنفا لم تكن موقعة باسمه.

لم يمض وقت طويل بعد إغلاق هذا الملف، حتى انفجرت قضية علي عبد الرازق: دافع هذا الأزهري السابق والمنتسب لحزب الأحرار الدستوريين في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، الصادر في ١٩٢٥، عن أطروحة ترمي إلى الفصل بين الدين والدولة في الإسلام، وشكك فيها في الطبيعة الإسلامية للخلافة. كانت الفضيحة مدوية بكل المقاييس، خاصة وأنها جاءت سنة واحدة بعد إلغاء مصطفى كمال أتاتورك للخلافة وتداخلت مع الطموحات التي كان يغذيها الملك فؤاد وصدمت بعض الأوساط السياسية والدينية. الحكم الذي صدر في ١٣ غشت ١٩٢٥، عن مجلس كبار علماء الأزهر

جرد علي عبد الرازق من صفته كعالم وشطب عليه من سلك القضاء بالمحكمة الشرعية بالمنصورة. تبعا لذلك، وبأمر من القصر، عزل عبد العزيز فهمي قائد حزب الأحرار الدستوريين ووزير العدل من منصبه لمعارضته للحكم في ٢٥ شتنبر ١٩٢٥، وهو ما أدى، ثلاثة أيام بعد ذلك، إلى استقالة الوزراء الدستوريين الآخرين من حكومة الوحدة.

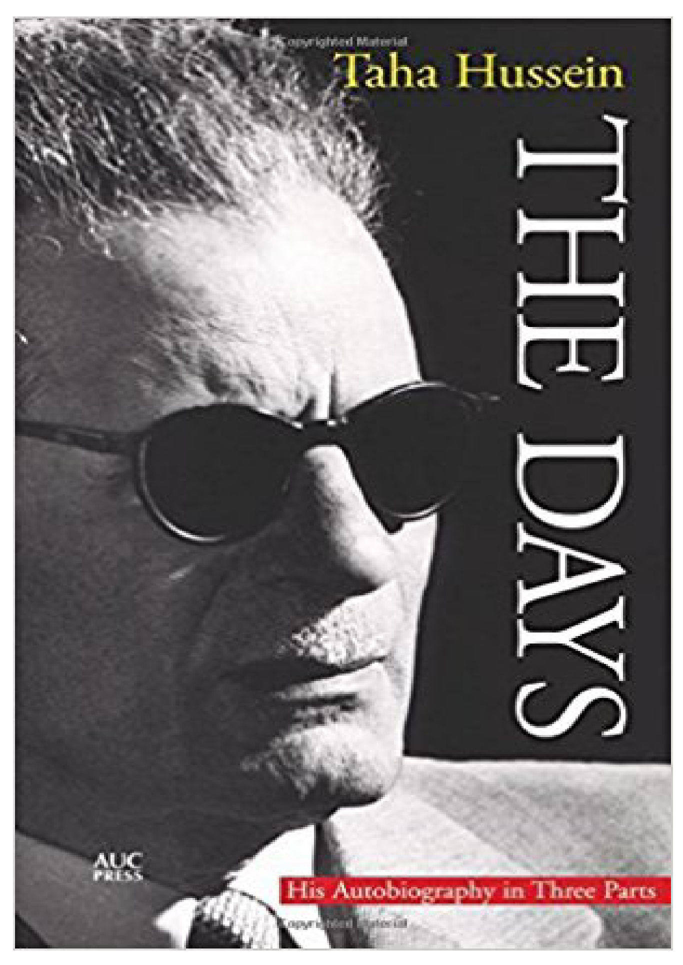
في خضم هذه الأزمة الدينية والسياسية الخطيرة، كانت جريدة السياسة تدافع بكل ما أوتيت من قوة عن علي عبد الرازق وكان طه حسين يكتب مقالات عنيفة، بشكل خاص ضد الأزهريين هكذا:

اتحد أناس من الأزهر ضد هذا الرجل وطردوه من صفوفهم؛ إلا أن الأزهر شيء والدين شيء آخر ... هيا إذا، نناقش ونضحك من هذه القصة المضحكة، قصة كتابك، الحكم عليك، التشطيب عليك من الأزهر؛ نعم سنضحك منك ومن كتابك ومن الأزهر ومن أولئك الذين طردوك منه. لنناقش بكل حرية، ولاتكن أزهريا، إنك لم تعد في الأزهر. ما الذي قلته في كتابك؟ أكدت بأن الخلافة ليست من أركان الإسلام؛ لماذا لم تواصل دراستك إلى النهاية وإنهاء النظرية: الخلافة لا أساس لها في الإسلام، إنها مأخوذة من القانون الروماني (كريم، ص ٦٤).

ما كادت تهدأ قضية عبد الرازق، حتى وجد طه حسين نفسه هو الآخر في قلب أزمة شديدة الخطورة. صدور كتابه«في الشعر الجاهلي» أثار فضيحة تجاوزت تفاعلاتها بشكل واسع حدود العالم العربي الإسلامي ولازالت أصداؤها تتردد إلى أيامنا هذه: تفجرت القضية عندما جمع طه حسين المحاضرات التي كان قد ألقاها في الجامعة عن الشعر الجاهلي في كتابه، «في الشعر الجاهلي». وهو الكتاب الذي شكك فيه في صحة الشعر الجاهلي باسم مبدأ الشك الديكارتي، وأكثر من ذلك دعا إلى مقاربة علمية للنصوص الدينية وهو ما أثار صدمة رهيبة، قراءة بعض الفقرات مثل هذه أصاب عددا كبيرا من علماء الأزهر بالذهول:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لوجودهما التاريخي، فضلا عن هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها» (في الشعر الجاهلي، ص ٢٦).

في عددها الصادر بتاريخ ١ مارس ١٩٢٦، نشرت صحيفة «السياسة



الأسبوعية» مقدمة كتاب «في الشعر الجاهلي» وأعلنت عن قرب صدور الكتاب. كان رد الفعل فوريا: نشرت الصحافة هجومات عنيفة ضد الكتاب ومؤلفه. دافع طه حسين عن نفسه على صفحات «السياسة الأسبوعية» بتاريخ ٠٨ و١٦ ماي، منتقدا تحجر وجمود رجال الدين. منذ الغد، كانت القضية قد تجاوزت مستوى الجدل العادي لتتخذ شكل قضية وطنية. في ١٧ ماي ١٩٢٦، انطلقت مظاهرة لطلبة الأزهر مطالبة بإقالة طه حسين واتجهت نحو البرلمان الذي كان يرأسه سعد زغلول الذي وقف خطيبا فيهم وقال: إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلا يهذي في الطرق فهل يضير العقلاء شيئا من ذلك: إن هذا الدين متين وليس الذي شك فيه زعيم ولا إمام حتى نخشى من شكه على العامة ... فليشك ما شاء ... ماذا علينا إذا لم يفهم البقر (عبد الغني، ص ٤٤). مع ذلك، فإن علماء الأزهر بعثوا برسالة إلى أحمد لطفي السيد رئيس الجامعة وأمروه بسحب الكتاب من السوق ومحاكمة مؤلفه أمام العدالة. في



٢٧ ماي كتب طه حسين رسالة مفتوحة لرئيس الجامعة، أكد فيها على عمق إيمانه، وركز فيها على أنه لم يكن يقصد انتقاد الدين الإسلامي واقترح أن يضع تحت تصرفه كل نسخ الكتاب الذي أسيء الظن فيه. اشترت الجامعة نسخ الكتاب من دار الهلال وختمتها بالشمع الأحمر ووضعتها في مخازنها، في حين لم يتقرر اتخاذ اية إجراءات قانونية أو عقاب في حق الكاتب.

في مواجهة سكون الجامعة، راسل شيخ الأزهر النائب العام لكي يعرض المسألة على العدالة بعد قرار علماء الأزهر. اتهم القرار طه حسين بالردة عن الدين والتهجم المتعمد على الإسلام، وطالب بأن تتخذ في حقه كل العقوبات التي يتوقعها القانون في هذه الحالة. بالنظر للمنعطف الذي اتخذته الأحداث، رخصت الجامعة لطه حسين (من المحتمل أنها حثته) لكي يجد لنفسه ملاذا في الخارج: اختار هذا الأخير فرنسا كمنفى مؤقت، من ماي ١٩٢٦ إلى يناير ١٩٢٧، مدة طويلة من تسعة أشهر تم خلالها وضع تصور الجزء الأول من «الأيام» في فرنسا حيث كان يتابع تفاعلات الأزمة. باسم شرف الجامعة، طلب منه ثروت باشا عدم الرد على الهجومات التي كان يتعرض لها، فالتزم طه حسين تبعا لذلك الصمت، ولم يخرج من صمته إلا مرة واحدة، حين خص صحيفة «لانفورماسيون» بمقابلة ترجم نصها ونشر في عدد«السياسة الأسبوعية» الصادر بتاريخ ١٦ يناير ١٩٢٧. ندد فيها طه حسين بخضوع السلطة السياسية لحكم رجال الدين وربط بقوة بين قضيتي ١٩٢٥ و١٩٢٦.

«لم ينس أحد أن قاضيا في المحكمة الشرعية فصل من مهامه وأن وزيرا عزل من منصبه بسبب كتاب لم يكن له نصيب ليروق لرجال الدين ... لقد أملوا إرادتهم على الحكومة بطريقة فظة ومثيرة للسخرية».

لم يكن هذا الرد، مع ذلك، كافيا لمواجهة هيجان الصحافة والنشر. كانت الحملة منسقة من قبل بعض أوساط الأزهر، ولكن أيضا من قبل بعض الوفديين. استمرت من دون انقطاع إلى غاية شهر ماي ١٩٢٧، وفي نفس الوقت ظهرت كتب تنقض أطروحات طه حسين وتدحضها (أربعة كتب في سنة ١٩٢٧ وحدها). لم يتجرأ أي مقال على الدفاع بشكل علني على الأطروحات التي بسط فيها القول كتاب «في الشعر الجاهلي»؛ صحيفة السياسة اتخذت موقفا حذرا وفضلت التواري إلى الخلف. المدافع الأكثر حماسا عن طه حسين في الصحافة كان هو كاتب حزب الوفد الكبير، عباس محمود العقاد الذي وضع دفاعه عن طه حسين تحت اسم ضمان حق حرية الرأي. الدعم الذي وجده طه حسين عند الأحرار الدستوريين، وحتى عند بعض الوفديين مثل علي الشمسي وزير المعارف، اتخذ شكل مؤازرة سياسية لإنقاذ الرجل الذي وجد نفسه في قلب ما صار ينعت من الآن فصاعدا بـ «قضية طه حسين» التي دفعت مصر إلى حافة أزمة سياسية كانت لها أصداء على المستوى العالمي. من المفيد التذكير بأهم تداعيات هذه الأزمة.

في ٢٣ من شتنبر ١٩٢٦، خلال جلسة صاخبة في البرلمان، اتهم عدد من الأزهريين والوفديين طه حسين بالردة وطالبوا بفصله من المهام التي كان يشغلها في الجامعة وتقديمه للعدالة. اتخذ النقاش شكل مواجهة بين قائد الوفد سعد زغلول، رئيس البرلمان وعدلي، الوزير الأول من الأحرار الدستوريين. قادت شراسة النقاش إلى حافة أزمة حكومية وسياسية، لأن عدلي جعل من القضية مسؤولية حكومية. قرار تقديم طه حسين أو عدم تقديمه لمخالب العدالة تم في النهاية تأجيله إلى حين ظهور نتائج تقرير طلبه النائب العام (عبد الغني، ص ٤٧ – ٤٨). تم فتح تحقيق، استمر على مدى ستة أشهر وانتهى في ٣٠ مارس ١٩٢٧ بنشر نص من ٣٢ صفحة خلص إلى أن الهدف الصريح لطه حسين لم يكن يتمثل في مهاجمة الدين وتم بالتالي، حفظ القضية على المستوى القانوني. بمجرد ما شاع خبر هذا القرار، ظهر الكتاب مرة أخرى تحت عنوان معدل بشكل طفيف (في الأدب الجاهلي، ١٩٢٧)، وبعد أن حذف المؤلف منه المقاطع المثيرة للجدل. مع ذلك، ما فتئت القضية تثار بشكل دوري في البرلمان بحسب التجاذبات السياسية الداخلية المصرية، في ماي ١٩٢٨، يناير

١٩٣٠، ومارس ١٩٣٢. أما بخصوص النقاش فلم يغلق على الإطلاق في الحقيقة، إذ لازال يعود إلى الواجهة بشكل دوري إلى أيامنا هذه.

الجزء الأول من «الأيام» تم إملاؤه في أوج أزمة «قضية طه حسين»، في اللحظة التي فرض على هذا الأخير الإقامة في منفى قسري ليجد نفسه معزولا في مواجهة انفجار الأحقاد والأهواء، ولم يكن يجد من مساندة إلا في بعض السياسيين فحسب. وضعيته المهنية كانت مهددة، وضعيته الشخصية هشة؛ كان يجهل ما إذا كان يجب عليه أن يمثل أمام العدالة، ولم يكن يعرف في أي وقت سيتاح له الرجوع إلى مصر، كما كان يتلقى تهديدات بالاغتيال. لم تكن القضية قد خلصت إلى حل، عندما سيظهر الجزء الأول من «الأيام» على شكل حلقات.

ربط عدد كبير من الناس بين أزمة ١٩٢٦ وتحرير الجزء الأول من «الأيام». من دون أن ننساق في منحى مطبوع بالحتمية بشدة، نجد أنفسنا، مع ذلك، مجبرين على ملاحظة أن الوضعية الحرجة التي عاشها طه حسين، في اللحظة التي أملى فيها الجزء الأول من «الأيام»، كان لها أثر في تأليف الكتاب. القارئ المحتمل للكتاب كان حينها عضوا في رأي عام متشنج إزاء من وصف له كمرتد عن الدين، تغذى في الخارج ويهاجم الإسلام وأمته الإسلامية فيما هو أشد قدسية لديها. القارئ المحتمل كانت له أيضا عين العدالة: كل وثيقة إضافية يحتمل ضمها إلى الملف وإلى تحقيق النائب العام من شأنها أن تعرض صاحبها للمتابعة الفورية.

يجب كذلك الأخذ بعين الاعتبار الصمت الطويل الذي فرض على طه حسين: معزول، اضطر لسحب كتابه من السوق، كتابة ما يمكن أن ينظر إليه في أحسن الأحوال كإقرار بالذنب، وأن يوجد في منفاه محروم من إمكانية الدفاع عن نفسه، مكره على لجم طبعه، مضطر لمتابعة الأحداث من دون أن يكون له حق الرد على فورة حملة تعرض فيها للإنهاك والافتراء على شخصه في غالب الأحيان، بل واتهم في حياته الخاصة مثل ما نقف عليه في هذه المقالة التي انحط فيها مفكر مثل رشيد رضى إلى درجة لم يعد يرى فيه إلا «أستاذ تجديد الإلحاد وانحلال الأخلاق في الجامعة، رجلا لا ينظر لا بالعين ولا بالقلب، والذي بعد أن تزوج امرأة لا تدين بالإسلام، صار يعطى لأبنائه أسماء فرنسية، تحركه في كل ذلك إرادة أن يجعل من أمته فريسة للدول الأوربية» (لاموريت LAMOURETTE، ١٩٧٨، ص ٢٦٤). قراءة بسيطة لعناوين المقالات التي نشرتها صحيفتا «الفتح» و«الاتحاد» في شهري غشت وشتنبر ١٩٢٦ تكشف عن عنف نبرتيهما: «طه حسين ينتحر» (الفتح ١٢/٠٨/١٩٢٦)؛ «طه حسين ينكر وجود الله ويقولإن العلم ينقض الدين» (الفتح ٢٦/٠٨/١٩٢٦)؛ «ما الذي يبحثون عنه بنشر الإلحاد»(الاتحاد ١٢/٠٨/١٩٢٦) ...غرور، جهل، خيانة، قذف، انحلال، فساد بالأفكار الأوربية، ردة، ليست هذه إلا بعضا من الاتهامات التي رمي بها مؤلف «في الشعر الجاهلي».

في مواجهة كل هذا السيل العرم، النص المكتوب الوحيد الذي أقدم طه حسين على نشره كان هو الجزء الأول من «الأيام» على شكل حلقات. بعيدا عن أن يقدم نقدا ذاتيا، يقدم فيه مساره الذي تقبله وأعاد تفكيره من خلال نظرة نقدية للعالم المحيط به وللتقاليد الثقيلة التي يرزأ تحت وطأتها. يقترح في مواجهة الهجمات صورة ذاتية تتشكل من قطع متوالية من الذاكرة، كل واحدة تشكل مرحلة من مراحل الصراع ضد ظلمات الشدائد. هل يتعلق الأمر بتبرير؟ أو بتمرير رسالة نقدية (في مثل هذه الحالة فإن الخطاب متحكم فيه، محصور في حدود معينة، زمانية بشكل خاص، يقف به عند حد التحاق الصبي بالأزهر)؟ أو إرادة أن يوجد، أو أن يوجد من جديد في سياق بحث عن حقيقته الخاصة؟ ربما يجتمع في بداية «الأيام» كل هذا وأشياء أخرى أيضا، وحدها قراءة متأنية للنص يمكن أن تسمح بإخراجها إلى النور. يبدو أن هذه الأزمة كانت طويلة الأمد إذا احتكمنا إلى الاضطراب الذي ترتب عنها في إيقاع إنتاج طه حسين. مراجعة كمية تكشف عن وجود «ثقب» واضح جدا في إيقاع صدور أعمال مؤلف كثير الإنتاج ومنتظم بشدة في عمله:

١٩١٩ إلى ماي ١٩٢٦	٠٩ كتب
ماي ١٩٢٦ إلى ١٩٣٢	٠٢ كتابان : في الأدب الجاهلي + الأيام
١٩٣٣ – ١٩٣٩	١٧ كتابا
١٩٤٠ – ١٩٤٥	٠٩ كتب
١٩٤٦ – ١٩٥٢	١١ كتابا
١٩٥٢ – ١٩٦٠	٠٩ كتب
١٩٦١ – ١٩٦٧	٠٣ كتب
١٩٦٧ – ١٩٧٣	٠١ كتاب واحد

نلاحظ بعملية حسابية وجود انتظام من ٠٩ إلى أحد عشر

كتابا في كل ست سنوات وذلك حتى ١٩٦٠. باستثناء الفترة التي تمتد من بداية أزمة ١٩٢٦ إلى تاريخ آخر تدخل لنواب البرلمان في موضوع أطروحات طه حسين عن الشعر الجاهلي. على امتداد هذه السنوات الست، فإن الكتاب الوحيد الجديد الذي نشره المؤلف هو الجزء الأول من ترجمته الذاتية. يبدو أن طه حسين تمالك نفسه، بالنظر للكتب السبعة عشر التي ألقى بها إلى سوق النشر في السنوات الست الموالية: في المعدل: ٢ + ١٧ = ١٩ / ٢ = ٩،٥ كتابا في الفترتين المعنيتين، وهو ما يطابق بالضبط «إيقاع» النشر الذي تمت إثارته أعلاه.

سيكون من السخيف العمل أكثر مما يلزم لاستنطاق الأرقام. مع ذلك، فإنها تبرز المكان الذي يحتله الجزء الأول من «الأيام» في أعمال طه حسين. هذا النص الذي تم تحريره ونشره على حلقات في أوج الأزمة، صدر على شكل كتاب في ١٩٢٩، بعد هدوء نسبي للأوضاع. مما تجدر الإشارة إليه أنه لا نشر «الأيام» على حلقات ولا على شكل كتاب فيما بعد أدى إلى تأجيج المشاعر. اختيار شكل فني عبارة عن حكاية ترجمة ذاتية ذات توجه أدبي، كان يشكل آنذاك حدثا جديدا بالكامل في الأدب العربي، وهو أمر ليس بالغريب عن قلة الاهتمام التي حظي بها العمل في البداية والذي لم يكن من شأنه، مهما كان الأمر، أن يستفيد من خاصية لم يكن الجنس الروائي بالقادر على ادعائها. أحد الأصدقاء المقربين من المؤلف، أستاذ في الجامعة، نصحه بعدم الإقدام على نشر الأيام في كتاب لأن مثل هذا العمل، في رأيه، لا يستحق مثل ذلك[٧]. عند صدوره، لم يثر الكتاب إلا أصداء قليلة في حينه، باستثناء مقالين نشرا في السياسة من لدن صديقين للكاتب، يوسف حنا وعلى عبد الرازق [٨]. ثلاث سنوات بعد ذلك، بدأت الترجمات الأولى للكتاب تصدر في أوربا، فكان أن كرست في الخارج نصا بدأ يتم الاعتراف بأهميته الحقيقية في العالم العربي.

الجزء الثاني من «الأيام»: ١٩٣٩

إذا كان الجزء الأول من «الأيام»قد ظهر في سياق أزمة حادة، فإن الجزء الثاني من الكتاب أصدره مفكر معترف به ومحترم ومهاب الجانب حتى من أولئك الذين جادلوه في أطروحاته. بعد عزلة ثانية عانى منها كثيرا تحت حكومة صدقي، عاد طه حسين إلى الواجهة إثر تقربه من الوفد المنتصر وعين في سياق ذلك رئيسا للجامعة المصرية.

لم تعد فترة الإكراه على الصمت من الآن فصاعدا إلا ذكرى: أتيحت لطه حسين فرصة كبيرة للرد على الاتهامات بالإلحاد التي تعرض لها. أعاد إحياء أفكاره بخصوص ضرورة الفصل بين العلم والدين في كتابه «من بعيد» وطالب بشكل واضح في كتابه «في الصيف» بحرية البحث العلمي في النصوص المقدسة. باشر، بالموازاة مع ذلك، إعادة قراءة واسعة للسيرة النبوية في الأجزاء الثلاثة لكتاب «على هامش السيرة» التي صدرت على التوالي في ١٩٣١، ١٩٣٧ و١٩٣٨. إصدار هذه المؤلفات في الفكر الإسلامي أضفت على صاحبها حظوة يؤكدها بشكل واسع النجاح الذي لقيه الكتاب بمجرد صدور المجلد الأول منه مباشرة بعد مظاهرات شعبية مساندة أثارها في الشارع المصري فصله المؤقت من الجامعة من قبل صدقي في ١٩٣٢.

«عندما بدأ ينشر أصول هذا الكتاب، «على هامش السيرة»، ما كان يظن أنه سيحقق هذا القبول عند القراء، لكن الكتاب قد حققه، وبدأ طه حسين يشعر باغتباط وسرور مادي عوَّضاه عما ألم به بسبب التقاعد» (عبد الغني، ص ٢٠١ – ٢٠٢).

خلال نفس المدة، تمكن طه حسين من إنهاء حساباته مع رجال الدين، علماء الأزهر، الذين لم يراع لهم حرمة في هجماته الحادة التي قادها ضد قلاع التزمت والمحافظة الدينية، في تأليف «في الصيف» (١٩٣٣)، و«أديب» (١٩٣٥).

تجرد طه حسين كذلك لتأملات واسعة على الثقافة والتربية مع تأليف كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»، ١٩٣٨، سنة قبل صدور الجزء الثاني من «الأيام». يمكن تقريب الكتابين من بعضهما بسهولة بالنظر لما يظهرانه من اهتمام بالتربية. الجزء الثاني من «الأيام» يصف الانتقال المتدرج للشاب المتخرج من التعليم التقليدي في الأزهر إلى دروس مجددة، سواء بمضمونها أو بمنهجيتها، تلك التي كانت توفرها الجامعة المصرية. لا يبدو مع ذلك أن المسار تغير بالانتقال النهائي من مكان أولي إلى مكان آخر، من عالم «أصحاب العمائم» إلى عالم «أصحاب الطرابيش». ينتهي الجزء الثاني باعتراف بالعجز عن الحكم بشكل نهائي بين النظامين:

«فلندعه كما كان موضوعا للصراع بين القديم والجديد. ومن يدري! لعلنا نعود إليه مرة أخرى».

يطرح كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»قواعد إصلاح النظام التربوي في مصر، نظام تعليم مُجَدِّد الذي يجدر أن يوسع ليشمل مجموع السكان، وهو الوسيلة الوحيدة بحسب المؤلف التي تسمح لمصر التي حصلت على استقلالها حديثا اللحاق بأوربا. أوربا هذه، التي كان طه حسين يتطلع إلى ربط مصر بها لم تكن هي تلك التي كانت تسعى الكمالية إلى فرضها

بالقوة في تركيا. كان يطبق عليها، في الواقع، التعريف المتوسطي الذي ظل يؤكد أنه وجده عند بول فاليري:

«وقد ذكرت في غير هذا الموضع أن الكاتب الفرنسي المعروف بول فاليري أراد ذات يوم أن يشخص العقل الأوربي فرده إلى عناصر ثلاثة: حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان». (بول فاليري، الجزء الأول، ص ١٠٩٥ – ١٠٩٨) [٩].

كان طه حسين يضع في المقدمة العلاقات بين مصر القديمة والعالم الإغريقي الروماني ويؤكد على وحدة الأصل والعمق بين الإسلام والمسيحية لكي يؤكد على انتماء مصر للغرب وليس للشرق، كما يزعم التصنيف المتداول. من الآن فصاعدا، فإنها بتبنيها النموذج الأوربي، بشكل خاص في مجال القانون والديمقراطية والنظام السياسي حيث يمكن لمصر أن تحتل المكان الذي يعود لها عن جدارة واستحقاق (في الواقع، «النموذج الأوربي» هو بالأولى النموذج الفرنسي في فكر طه حسين، الذي لا يأخذ بعين الاعتبار صعود الإيديولوجيات الشمولية حينها في أوربا). هذا التأمل حول المجتمع والثقافة والنظام التربوي، الذي بسط فيه القول في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» سيتواصل باشتغال طه حسين في وزارة المعارف العمومية إلى اللحظة التي عين على رأسها وزيرا بين ١٩٥٠ – ١٩٥٢، وهي مرحلة يلعب فيها الجزء الثاني من «الأيام» الصادر في ١٩٣٩ دور النموذج المقتدى من خلال الأطروحات التي يدافع عنها. إذا كان الجزء الأول من «الأيام» ثمرة أزمة، فإن الجزء الثاني الذي صدر في ١٩٣٩ من قبل مفكر معترف به، يدافع عن أطروحات قوية بخصوص الثقافة والتربية في مصر.

الجزء الثالث من «الأيام»

يكشف المجلدان الأولان من «الأيام» عن اختلافات واضحة في الشروط التي قادت إلى تحريرهما؛ إلى أنها تظل في الحدود الدنيا قياسا بالبون الشاسع الذي يفصلهما عن المجلد الثالث. عرفت مصر في خضم ذلك قطيعة مع قيام ثورة ١٩٥٢، انقلاب الضباط الأحرار وقيام النظام الناصري. مع ذلك، فإن العهد الجديد لم يرفض طه حسين، بحيث قد لا يكون رأى فيه إلا الوزير السابق المقرب من حزب الوفد أو الرجل الذي رقي إلى درجة باشا في ١٩٥٠. أكثر من ذلك، حمل إلى الذروة الرجل الذي قدر فيه الإجراءات المساواتية التي سبق أن اتخذها في مجال التعليم (مقولته «التعليم ضروري مثله مثل الماء والهواء» صار شعارا)؛ تعرف فيه على مؤلف «المعذبون في الأرض» الذي يندد بالفقر المدقع للشعب المصري وفاقته التي لا تطاق قياسا بالرفاهية التي تتمتع بها أقلية عمياء عن معاناة الآخرين. الكتاب الذي كان قد صدر في بيروت سنة ١٩٤٩ والذي لم يسمح بتوزيعه في مصر، احتفي بنشره في القاهرة سنة ١٩٥٢. أخيرا، وقبل كل شيء، فإن مصر ما بعد ١٩٥٢ صارت ترى في طه حسين أكثر من رجل وأكثر من نابغة، رمزا تقريبا، الشخصية المجسدة لثقافة عربية وجدت أخيرا طريقها إلى حداثة كونية: أشار إلى ذاك جاك بيرك بقوله: «من المغرب إلى العراق جمهور واسع يقرأ ويجل «عميد الادب»، بحماس يحمل في طياته خصومة أقل إذا ما قيست بما يوجد عند مواطنيه». يستشف هذا التمجيد في عدد الكتب التي نشرت عنه. إلى حدود ١٩٣٣، فإن أغلب الكتب التي نشرت عن الرجل كانت تتضمن أطروحات جارحة إزاء كتاب «في الشعر الجاهلي»، أما المرحلة الراهنة فتشهد ظهور تأليفات كثيرة عن حياة طه حسين، تأليفات إيجابية بشكل كبير، إلى حد أن الإطراء سيتحول إلى مديح في بعض الأحيان. هذه الشهادات المتعددة لم يكن في إمكانها القيام مقام الشهادة المباشرة التي من شأن الذي يحمل لقب «عميد الأدب العربي» أن يقدمها عن نفسه وعن عصره، باعتباره شخصية تتمتع بكل الإجلال وتحظى بكبير الاهتمام. في هذا السياق وافق طه حسين، في ١٩٥٥،على منح مجلة «آخر ساعة» امتياز نشر حلقات عن سيرته الذاتية التي، وإن بدت مندرجة في الاستمرارية الزمانية مع المجلدين السابقين لـ «الأيام»، إلا أنها تبدو مع ذلك مختلفة عنها بشدة بخصوص مرماها وبنيتها. ليس من النافل ملاحظة أن هذه النصوص انتظرت بعد ذلك اثنا عشر عاما قبل أن تصدر في كتاب، وهو الكتاب الذي نشر أولا كمذكرات (١٩٦٧) ولم يتم إلحاقه بـ «الأيام» باعتباره الجزء الثالث منها إلا في ١٩٧٢، سنة قبل وفاة كاتبها. على المستوى الزمني يبدو أن هناك وحدة أو على الأقل استمرارية التي قد نجد عبرها ما يغرينا على رؤية سمة لأثر مكتمل: تغطي الحكاية في الأجزاء الثلاثة لـ «الأيام» مرحلة تفتح الطفولة الأولى لـ «الصبي» بطل المجلد الأول وتنتهي بإثارة احداث حصلت قبيل أزمة ١٩٢٦، والذي هو أيضا تاريخ إملاء بداية الكتاب: هكذا، يقف زمان الحكاية عند بداية زمان الكتابة، التي يمكن ان تكون فعلا تتويجا لها: قد يكون المؤلف

أعاد تشكيل مساره بالكامل، وصولا إلى لحظة في حياته حيث قد يكون شرع في تدوينه لاقتراحه على آخرين.

هذا المنظور العام يستدعي ملاحظتين: الأولى، الترجمة الذاتية هي جوهريا كتابة مفتوحة، غير مكتملة. كان طه حسين قد فكر في أن يكون للعمل تتمة (أحمد عُلبي، ١٩٨٥، ص ١٦). أما الملاحظة الثانية فتمس السؤال الماكر حول وحدة الأثر كما تظهر لنا: لقد تم تسجيل وجود تحليلات غالبا ما تعزل الجزأين الأول والثاني عن الثالث. مثل هذه الملاحظة تمهد مباشرة لأخرى: هل هناك وحدة واضحة أكثر بين الجزأين الأول والثاني؟ الرجل الذي حررهما لم يكن هو نفسه تماما؛ أفق الانتظار كان مختلفا جدا. من المستحيل افتراض أن المشروع يمكن أن يكون متطابقا، في المجلد الأول، صدى مأساوي لأزمة عميقة،أماالثاني، فيندرج في سياق نقاش الأفكار بين القدماء والمحدثين؛ أكثر من ذلك، إذا كان يبدو أن البحث عن المعرفة يشكل الموضوع المركزي المشترك بين الأجزاء الثلاثة، فإنه لا يمكن مقارنة نوع المسار فيها مجتمعة: تدريجي وصاعد في الجزء الأول (من قرية الطفولة على الأزهر في القاهرة)، مزدوج في الجزء الثاني (الأزهر / الجامعة)،ثم يصبح فضائيا، ذهاب وإياب في الجزء الثالث (من مصر إلى فرنسا / من فرنسا إلى مصر). أخيرا، ليس واضحا أن الحكاية مقترحة بشكل جلي على نفس الجمهور في الحالات الثلاث: المجلد الأول كتب لابنة المؤلف، في حين الثاني موجه لابنه (توجيه الكتابين الأول والثاني إلى مرسل إليهما على التوالي ينقضه الكاتب بإقدامه على نشر النصوص، ولكن التوجيهين يدرجان في الحكاية مرسلا إليه مفضلا يجب أخذه بعين الاعتبار). أما الجزء الثالث فلا يحدد مرسلا إليه، ولكنه ينتهي بفصل له دلالته يحمل عنوان: «إيمان بالثورة». نجد أنفسنا أمام ثلاثة مسارات موجهة بأشكال مختلفة، مقترحة على جماهير مختلفة. يبرر هذا مقاربة للأثر تقوم على فصل حكاية كل واحد من المجلدات الثلاثة عن الأخريات. هذه الاستقلالية سيتم تحيينها بشكل واضح من الداخل، عبر باقي التحليل الذي سنخصصه في هذا المقال للجزء الأول من «الأيام» الذي أملي في ١٩٢٦ ونشر في ١٩٢٩.

«الأيام» مسارات النص

المظهر العام

طبع نص «الأيام»[١٠] في ثلاثة أجزاء لا يقترح أي منها إشارة مكتوبة على الغلاف مرافقة للعنوان توفر معلومات عن طبيعة الكتاب، كما لا يتوفر أي من الأجزاء على تقديم يعرض فيه المؤلف مشروعه أو يقترح ميثاقا لترجمة ذاتية. وحده الجزء الثالث يقدم في الغلاف الرابع نصا للناشر دعا فيه إلى التعامل مع النص باعتباره ترجمة ذاتية لطه حسين. وفرة الرسوم تعزز من جاذبية الكتاب، تقترح بدأ قراءة عبر تطور المشاهد واللوحات التي رسمت بالمداد وقلم الفحم. لأشكال الجزء الأول قاسم مشترك يتمثل في ظهور «الصبي» بطل الحكاية متواريا، سلبيا، خاضعا، بل مسحوقا تحت وطأة الشخصيات أو العناصر التي تفرض حضورها كمكونات لهذه الرسوم. اهتزاز خط قلم الفحم بجعلها تجتمع ببعضها، أقارب، معلم الكتاب القرآني، جن وشياطين في نفس الفضاء الاستشباحي الذي لا يفلح الصبي على تسجيل حضوره فيه حقيقة. يقترح الجزء الثالث على العكس، في وضوح خط الريشة وتباين الحبر الصيني رسوما يهيمن فيها من الآن فصاعدا البطل على الفضاء، يفرض نفسه على الأشخاص الآخرين. «انتصار» يتجسد في تغيير بذلته: تنازل منذ الآن عن الجلباب التقليدي لكي يدخل في ملابس أوربية، يملأ معظم مساحة الصورة، ظافر، تتسع الصفحة بالكاد له، هذا في الوقت الذي تطفو الحروف رمزيا في الأجواء وكأنها تستعد لترتيب شعر رأسه. في المقابل، لا يتوفر الشيخ المعمم في الصفحة ٥٧ إلا على مسبحة ومروحة.

القراءة التي باشرناها أعلاه لا يجب أن تحجب، مع ذلك، التنافر الموجود بين المجلدات الثلاثة المنشورة: يتميز الجزء الأول عن الأجزاء الأخرى بإخراج أكثر تهوية وبأحرف أكبر حجما، مع عدد كبير من الهوامش لتفسير الكلمات الصعبة وتشكيل النص في أجزاء كبيرة منه. يبدو أن كل هذا يستهدف جمهورا شابا وممدرسا. هكذا، فإن الجزء الأول يقترب من الحكاية التعليمية للمراهقين. تشكيل النص وشرح الكلمات الصعبة في الهوامش، سيغيب ابتداء من الجزء الثاني الذي لا وجود به من ناحية أخرى لأية رسوم. لا يسعنا إلا أن نلاحظ في النهاية غياب الوحدة في النشر: العناصر الوحيدة المشتركة بين الأجزاء الثلاثة، معتبرة في مظهرها الخارجي، هي اسم المؤلف «طه حسين»، والعنوان «الأيام» الذي يجدر بنا أن نقف عنده.

العنوان

«الأيام»: عنوان يخلو من كل عنصر يشير إلى أن الكتاب يجب أن يتلقى باعتباره ترجمة ذاتية؛ لا يُسجل أي مرجع مكاني أو مجازي، يُنشأ فقط محورا زمانيا، الذي يُقيم عليه:

١-محو: استعمال أداة التعريف لا يشير هنا إلى الشهرة، بل يخلق هالة طباعية تجميلية.

٢-تكرار: جمع كلمة «يوم» ليس الغرض منه تحديد بطريقة حسابية وجود عدد من الوحدات القابلة للتعداد؛ عملية الضرب تُضبّب كل شيء، تلغي الخطوط الواضحة للمواد المفردة.

هذه «الأيام» تنبعث هكذا من فراغ الغلاف، تحيط بها هالة غير واضحة المعالم ومُجَمَّلة مثل الذكرى التي تنبعث من العدم، الذاكرة التي تولد من النسيان. العنوان «الأيام» لا يشكل ملخص المسار، ولكن بداية الطريق. إنها الكلمة الأولى في الحكاية، تتكرر مباشرة كرجع صدى في بداية الفصل الأول:

«لا يذكر لهذا اليوم اسما»

مسار الجزء الأول من لحظة البداية إلى نقطة النهاية

ميلاد الذكرى

«لا يذكر»: بهذه الكلمات تبدأ «الأيام»؛ يتعلق الأمر ببداية مفاجئة بالنسبة لترجمة ذاتية. خلطت الأوراق إلى درجة أن هذا القول الأول في الكتاب يندرج بشكل مضاد لما يبدو أنه يجب أن يميز عادة الخطاب عن الذات، يعني الذكريات التي يقدمها الراوي – المؤلف الذي يتحدث في الغالب بضمير المتكلم؛ والحال أنه هنا، يرافق النكرة غياب الذكرى.

تعقب السبيل المفضي فورا إلى تشخيص ضمير الغائب «هو» باعتباره ضميرا للمتكلم «أنا» مقنعا، يعني تجاوز المراحل والانتقال إلى توثيق الترجمة الذاتية بإقامة تماثل بين حياة المؤلف والنص وهو أمر سيقود إلى إهمال نقطة هامة: كل النظام السردي الذي تم ترتيبه يتغيى بالضبط القذف بنا خارج الإطار التقليدي للترجمة الذاتية وخدعها. يوجد هكذا:

١-عزل للراوي عن البطل (أو على الأقل قيام مسافة بينهما)

٢-إخفاء الهوية: لا الراوي ولا البطل قدم نفسه، تحديد الهوية تأجل إلى نهاية الكتاب: راوٍ بدون هوية يعرض ذكرى لا وجود لها لدى بطل هو ذاته بِدون هوية: نكرة تؤكد بأن نكرة أخرى (أو يمكن أن تكون هي ذاتها؟) لا ذاكرة لها.

العنصر الوحيد الملموس هو أن هذه الشخصية (حقيقية؟ أو خيالية؟) تتحرك في زمان حاضر حيث يبدو أن زمان الحكاية وزمان الحكي يختلطان ببعضهما؛ وهي خاضعة لتفتيش داخلي من قبل الراوي في اللحظة التي تولي فيها وجهها نحو الماضي لكي تهيئ الشروط لانبعاث الذكرى. من التوتر المحدث من لدن هذا المجهود الذي يتغيى إعادة ابتكار الذاكرة والهوية، تولد الحكاية. يمتلئ الفراغ المطلق الأولي رويدا رويدا. يرتسم جانبيا، أولا على شكل نسخة سلبية كل ما من شأنه أن يشجع على انبعاث الذكرى، بدأ بزمان ماض، زمان بعيد جدا من الزمان الخاضع للقياس، هو أقرب إلى زمان أسطوري، زمان ذاتي:

مقطع قصير	لا يذكر لهذا اليوم اسما
مقطع طويل	لا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة
أداة إضراب	بَلْ
مقطع طويل	لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه
مقطع قصير	وإنما يقرب ذلك تقريبا

عبر هذا النفي للذكرى، للزمان الماضي، في غياهيب النسيان، يضع الخطاب مقصورات زمنية منظمة والتي، حتى مع نفيها، تم ذكرها مع ذلك:

يوم ← شهر ← سنة ← الله / الخلود ← لحظة

يجعلها الخطاب تنتقل من اللاوجود المطلق إلى نفي يُصبح معه وجودها، إن لم يكن ممكنا،فعلى الأقل قابل للتصور: بشكل حسابي تقريبا، كان هناك انتقال من ٠ (مجموعة فارغة) إلى لا A، مع إدراج A ولو سلبيا. انطلاق سياق استعادة الذكرى محدد في النص من خلال تضاد يسمح بالانبثاق التدريجي للذكرى: المقطع «لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه» يليه مباشرة «وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو عشاءه». وحده «لا A» سمح بـ «A» مدرجا اياه ولو بشكل سلبي في الحكاية: النسيان وحده هو الذي يسمح بالذكرى؛ نجد أنفسنا في قلب مسعى الترجمة الذاتية التي تقول عنها أليت أرميل Aliette Armelle:

«يشكل النسيان مرحلة جوهرية في إعادة إبداع عناصر تنبعث من الماضي عن طريق الكتابة، مكونة للواقع كما يمكن للكاتب أن يدركه» (١٩٩٠، ص ١٣١).

إذا كان قد صار في الإمكان تحديد هذه اللحظة الأولى أربعة أسطر بعد أن تم نفيها في البداية، فذلك لأن الخطاب جعلها تولد من غياهيب النسيان، وتلفظ بها كمشروع لا زال في حالة ميوعة، ولكن من واجب اللغة أن تضبط معالمه. في حركة أولى مطولة، يتعبأ الخطاب لكي يعمل على انبثاق من ضباب ذاكرة معطوبة لحظة مُكَبَّرة بشكل مفرط، لحظة الذكرى الأولى. التضاد المطلق «لا لحظة / لحظة» سيتقهقر تدريجيا عبر توالي التضاد:

١.تضاد أول: «هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو عشاءه»: يلي الفراغ الأولي بديل، اختيار بين إمكانيتين: محل (لا A وليس A) يحل (لا B أو E)، «فجر أو عشاء». من هذا الممكن حيث تولد النتفة الأولى من الذكرى: لأول مرة، يشار للفظة «يذكر» بأسلوب توكيدي، وقد تكررت في بداية كل واحدة من التضادات الثلاث الموالية:

٢.تضاد ٢ و٣: كانت هذه اللحظة، لحظة برد خفيف وليس بالأولى حرارة مفرطة (C - لا C) نور هادئ وليس بالأولى ظلام (D - لاD).

٣.تضاد ٤: الحركة الخفيفة التي تصل إلى السمع كانت هي حركة بيت خارج من النوم أو مقبل عليه، لا يتعلق الأمر بحركة وسط النهار [(E او لا E) وليس F]. يوجد من الآن فصاعدا تساكن المتضادات وحتى توافق نهائي في معارضتها لكل اختيار آخر. التضاد المطلق الأولي بين متضادين يجد نفسه من الآن فصاعدا متجاوزا، تولد اللحظة لذاتها، يمكن للذكرى أن تسجل ذاتها.

تتمكن اللحظة من تسجيل وجودها في الخطاب عبر زمان، ولكن أيضا عبر إيقاع. الجملة الأولى في النص المستشهد به أعلاه يجسد بتناظره الصارم إغلاق بشكل تام تقريبا دائرة، رحم، النسيان: أربعة مقاطع مقرونة مع بعضها على شكل أزواج، مقطع قصير يليه مقطع طويل (توسع)، حرف الإضراب قسم الجملة إلى قسمين متساويين ثم استدراك يقود مع مقطع طويل مقترن في طوله وبنائه التركيبي مع سابقه إلى مقطع قصير، بحجم يطابق بدقة تامة ذلك الذي يدشن بداية النص.

هذا النفس العميق للنسيان توقف مع ذلك بسبب التحجيم الذي جاءت به «إنما يقرب» التي تدخلت بعد توالي عدد من الافتراضات السلبية، لتثير قطيعة وتفتح مخرجا، هذا في الوقت الذي يوحي فيه الإيقاع بما يناقض القالب الأولي. في هذه الأثناء تظهر الذكرى، وهي لازالت في حال ارتباط بالشك عبر جمل طويلة يحدد إيقاعها التكرار الثلاثي «يرجح ذلك لأنه يكاد يذكر»لكي يفرض نفسه لاحقا وبشكل واضح تماما، الخطاب الذي يحدد إيقاعه من الآن فصاعدا تكرار «يذكر» التي تفرض بعض نتف الذكريات التي تكمل بعضها البعض لكي توفر الكثافة للحظة الأولى.

ميلاد للذكرى

عند تفسير هذا المقطع، سئل بعض المدرسين المصريين من قبل تلاميذهم الذين طلبوا معرفة ما إذا كانت اللحظة الموصوفة هي لحظة ميلاد طه حسين. وضع هذا المشهد الأساتذة في موقع حرج، فكان أن طلبوا من تلاميذهم طرح السؤال كتابة وبشكل مباشر على المؤلف. استنكر هذا الأخير الأمر ولذلك ما يبرره، فكان جوابه: ما عليهم إلا قراءة باقي النص لكي يتضح لهم أن الأمر يتعلق بأقدم ذكرى يحتفظ بها، ذكرى خروج الصبي إلى خارج البيت وليس يومه الأول (الدسوقي، ١٩٧٦، ص ٣٩). في الواقع، من المستحيل أن نرى في ذلك ميلاد الكاتب. ومع ذلك ... مع ذلك، فإن سؤال هؤلاء التلاميذ ليس بالمجاني كما يمكن أن يظهر. انبجاس ذكرى وهي تنبعث من غياهيب العدم في كمال لحظة مطولة، كما يسجلها الخطاب في هذا المقطع، توحي فعلا بفكرة ميلاد.

المرور من فراغ النسيان إلى ذاكرة الوجود له أولا، من الميلاد، طبيعته المقدسة. بقايا بعيدة للغة قرآنيه واضحة منذ الجملة الأولى، من خلال الجمع بين ألفاظ «يذكر، يوم، اسم»، وهو الجمع المتواتر في النص القرآني: من تسع عشرة مرة يظهر فيها لفظ «اسم»، نجده يأتي اثنتا عشرة مرة مقرونا باللفظين الآخرين أو أحدهما. يُعَزز التوازي بتكرار فيه إلحاح لهذه الألفاظ في المقطع وعن طريق التذكير الصريح باسم الله، مُنَظِّم الوقت الذي أعطى للكائنات والأشياء أسماءها. ذكر كلمات «نور» و«ظلمة» بضعة أسطر بعد ذلك وأهمية فعل «خرج»في باقي النص، فضلا عن الجذور السابقة، يوحي بهذه الآية من سورة إبراهيم (XIV، آية ٥)، التي تندرج تناصيا كما لو أن عليها الإعلان بطريقة رمزية عن مشروع الكتاب. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ"[11].

يتبع الإبداع في هذا النص تقريبا مراحل تكوين. من اللاوجود الأولي، يُخْرِجُ المتخيل لحظة أصلية التي تقيم هي ذاتها زمانا، الذي هو في نفس الوقت زمان الحكاية وزمان الذكرى. تفعل الذكرى في ضباب المحو متوسلة حيلة نفس محسوس، لكي تتبين النور من الظلمة. تَفَتُّق الذكرى، هذا النص هو أيضا نص ميلاد ضمير الغائب «هو»للخطاب الذي يتعبئ حوله من الآن فصاعدا. هذا الـ «هو» الذي يظهر ليس هو ذلك الـ«هو»، نكرة بدوره، المنهمك في بذل مجهوداته لكي يهيئ لانبعاث الماضي. إنه منتوج متخيل الآخر، على الأكثر صورة ما يُعتقد أنه كان عليها. تماثل الشخص النحوي لا يجب أن يَدفع في اتجاه الخلط؛ تحجب نفسها في الخلف ثنائية تدرك بشكل واضح في الخطاب. انفصال أحدهما عن الآخر هو أولا عملية

زمانية: يتحرك أحدهما في زمان حاضر، بشكل متزامن مع زمان الحكي؛ أما الآخر فينتمي للماضي، نقف في هذا على الخطاطة راشد – حاضر / صبي – ماضي، وهي خطاطة كلاسيكية في حكاية الترجمة الذاتية. الانفصال الثاني هو ذو طبيعة وظيفية: بتواطؤ مع الراوي، يهيمن «هو» الراشد وينظم استراتيجيا الخطاب. منظور «هو» الصبي لا يتم بلوغه إلا عبر تفتيت، تفجير ذاكرة الراشد التي تستعيد أحاسيس الصبي، ولكن بتنظيمها من منظور معقلن. الهندسة المعقدة للخطاب هي الدليل على هذا العمل المتمثل في إعادة البناء والذي يقصي كل ارتجال. استراتيجية الاتصال مع الذكرى الأولى خطط لها من قبل عقل منظم. هذا الـ «هو» الراشد، الكائن العاقل الحاضر في كل أرجاء الخطاب، يدشن تقريبا كل جملة وكل مقطع؛ يظهر أمامه الصبي عبر النتف المتناثرة للمشكال المنكسر للذاكرة. المجموع المكون جزأ، جزأ من قبل «هو» الراشد هل يمكن أن يشكل شبكة كثيفة بالقدر الكافي لإعادة خلق كائن؟ هكذا يبدو مشروع «هو» الراشد، نكرة في بحثه عن هوية عبر الذكرى. المشكل مزدوج: «هو» الراشد يجب عليه أن يعيد تشكيل «هو» الصبي ويجعله يولد للخطاب. يلزمه أيضا أن يعمل على تجديد الخيوط المقطوعة التي تفصله عن«هو» الصبي، هذا الوجه الآخر له. إنهاء هذا التقطع والتوصل إلى تحقيق الذات ككائن كامل يتوقف على استعادة الوحدة بين أجزاء منتوج ذاكرة مفكك، «هو» الصبي، والراشد، كائن عاقل في حالة إملاء استراتيجيته على الراوي الذي يخدمه. يجب على الخطاب أن يعيد بناء المسار الفاصل بين الذاكرة والعقل. بين الصبا وسن الرشد، بين الأمس والآن؛ هذا المسار يملي السبيل الذي يجب على «هو» الصبي الذي نراه وهو يولد للخطاب قبل أن يبدأ في الاشتغال. إننا بالتأكيد في حضور ميلاد «هو»: أنجبه بطن النسيان، يترك أولا وجها يظهر في النص؛ يحس حينها ببعض الأحاسيس التي تشير إلى تيقظ حواسه وتترجم انبعاثه في العالم المحسوس: أحاسيس لمسية أولا، مع البرودة الناعمة التي يشعر بها على وجهه؛ ثم بصرية بعد ذلك: يلحظ نورا خافتا، مضطربا على الرغم من «جهله بحقيقة النور والظلمة». سنكون مخطئين إذا رأينا في هذه العبارة إشارة محتشمة من الكاتب لعمى نور عينه فقط؛ مطابقة معنوية أكثر منها استباق. أخيرا، بانفتاحه على الحركة التي تحيط به، يكشف «هو» عن أحاسيسه السمعية. في نفس الوقت، يخرج من المنزل الميلاد الرمزي لـ «هو» الصبي على سطح الخطاب، محمول بالذكرى، يليه مباشرة انطلاق مسار الطفل باتجاه الراشد: ميلاد وعي، «نصر عسير للنور الروحي على الظلمة»[١٢]، تدرج بطيء لـ «هو» صبي - ذاكرة نحو«هو» راشد – عاقل. الهدف هو تحقيق كائن كامل، موحد في هوية ومضطلع بها، نصر يتجلى في الحكي من خلال استعادة ضمير المتكلم: الفصل العشرون والأخير من المجلد الأول من «الأيام»، يُستهل بهذه الكلمات: «إنك يا ابنتي ...» وينتهي بإمضاء الكاتب الذي يحدد بذلك بصفة نهائية البطل النكرة في الفصول السابقة ويعيد الحياة لرجل ... أو رجل للحياة.

حاجز وتجاوز

أفضى الطريق بالصبي وقد خرج بالكاد إلى حاجز: سياج القصب الذي يوجد أمام البيت العائلي. يقوم أمام الطفل ويمنعه من التقدم. انكشف الاصطدام بالحاجز حَسَنَ الطالع من جهتين: يسمح للذكرى أن تتركز، الأحاسيس المفككة والمهتزة تترك المكان لأول صورة واضحة. خيط رقيق يحاك بين حاضر وماض، مخففا المسافة بينهما:

«هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس»[١٣].

وُصِف الحاجز وكأنه متعذر تجاوزه من لدن الصبي: طويل جدا وقصبه ملتصق بعضه ببعض بشكل وثيق حتى يسمح بمرور جسم نحيف عبر فتحاته. مع ذلك، فإن هذا السياج هو الذي يسمح للطفل بتحديد موقعه في الفضاء، وإدراج أبعاده فيه: بعض خطواته تكفي لتجاوز المسافة بين البيت والسياج. هذا السياج كان أطول من قامته. تحديد الاتجاه يأتي بشكل متزامن (أمام، يسار، يمين). يسمح السياج كذلك للخطاب بتجاوز، للمرة الأولى، حدود وعي الطفل: هذا السياج، «كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية»، وكان «يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية». مع ذلك فإن الآفاق الغريبة التي أنتجتها قوة خيال طفولي تجد نفسها وقد لجمت على الفور، بتأطيرها بخطاب العقل، خطاب الراشد. يفرض «هو» الراشد هيمنته على تراتبية مستويات النص؛ يوجه هذيان «هو» الطفولي الذي يوجد عند ولادته بتحديد نُصُب له، استباق لحظة مختلفة على مسافة متساوية بين أمسِ الصبي وحاضر الزوج [«هو» الراشد – الراوي]: لا نعرف مرمى هذه المفارقة، ولكنها تقيم مرحلة على السبيل الذي يربط بين المستويات المنفصلة عن بعضها؛ كما تدرج أيضا ما سيكون محرك الاجتماع: المعرفة.

«وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريبا؛ فقد كانت تنتهي

إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن»[14].
متخيل الصبي موجه بالكامل من قبل «هو» الراشد الذي يدرك أن عليه التحكم الاستراتيجي في الأفق لكي يوجه السبيل، أن يعطيه معنى. يركز الخطاب حينها اهتمامه عل الحاجز الثاني، القناة، وهو حاجز مختلف تماما عن السياج: العنصر الأول لتحديد الصورة الفضائية (السياج) يرتفع، عموديا، ثابتا، صلبا، يتعذر تجاوزه ولكن متحكم فيه مباشرة. أما القناة، فهي أفقية، سائلة، متحركة. كونها سائلة، يعني أنه لا يمكن إدراكها بما في ذلك من قبل عقل طفولي الذي لم يتمكن من ضبطها إلا بعد أن تجاوز مستوى أول في القدرة على الفصل بين المعرفة والمتخيل. عدلت القناة مسار الصبي في حركة موجهة نحو المعرفة.

المسافة من «هو» إلى «أنا» والبنية السردية.

ترسم بداية «الأيام» سبيلا هو في نفس الوقت فضائي وزماني وداخلي، وهو السبيل الذي ينبئ بمسار الكتاب. تَشَكُّل الذكرى الأولى وهي تنبعث من رحم النسيان تتمثل في ميلاد «هو»الصبي للحكاية، في لحظة أولية تم تضخيمها بشكل مفرط. هكذا، تم التمهيد لسبيل عليه أن يقود الصبي، «هو» الصبي، نتاج ذاتي للذاكرة، في اتجاه «هو» الراشد، عقل موجِّه، إلى اللحظة الحاضرة، خطاب الراوي. من الوحدة المتوخاة لهذه المستويات ينتظر، عند نهاية الطريق، معرفة / استكشاف الذات، مطبوعة بالتماهي النهائي للراوي الكاتب. الـ «أنا» المستعاد يتقمص ذاكرة منظمة من لدن العقل وفي حالة توافق مع هذا الأخير. يقدم نفسه كنموذج يحتمل أن يتبعه مجتمع متأثر بشدة بتقاليد غير ملائمة.

المسافة من «هو» إلى «أنا»، من الصبي إلى الراشد، هي أيضا مرور من ماض ملتبس ومتكرر، مطبوع برتابة توالي الأيام في متخيل محروم من مفهوم الزمان الخاضع للقياس، إلى حاضر واع، محدد التاريخ وصافي الذهن. بين الإثنين هناك اختبارات ومحن، تناسخ متعدد للحاجز الأول، السياج الرمزي صار قناة. كلها ترسم الحدود بين «ما قبل» أسطوري تقريبا و «ما بعد» الذي يربط بشكل وثيق التقدم في اتجاه العلم، معرفة الذات واكتشاف العالم. هذا الـ «ما بعد»في تعدده يَفتحُ الصبي بشكل تدريجي على وعي متزايد بالمدة، التي تستمر متصلة إلى اللحظة الحاضرة حيث يوجد في نفس الوقت «هو» الراشد والراوي. الفصل الثالث هو هكذا، الفصل الذي اكتشف فيه الطفل أنه مختلف عن الآخرين، بالارتكاز ليس على الصورة المعكوسة في المرآة مثل ما نجده عند لاكان، ولكن على «النظرة» التي لعائلته عليه والتي جعلته يدرك أنه كفيف. اختبار الفصل الرابع (التعلم الصعب لآداب المائدة بالنسبة لكفيف) يقود لما بعد مرتبط باللحظة الحاضرة من خلال مفارقتين بعيدتي المدى، تشير الثانية منهما منذ الآن إلى الرحلة نحو أوربا والزواج. ينتهي الفصل على أول شعار زمني محدد كميا، يتخذ شكل التذكير بالسن الذي بلغه الصبي:

«ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغاني والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة، وحفظ إلى ذلك كله القرآن» [15].

هذه الوضعية الأولى في الزمان مرتبطة بمستوى تم تحقيقه في مسار المعرفة. الحكي هو الآخر يتطور: لا يكتفي بنقل ذكريات متناثرة؛ انطلاقا من الفصل الخامس، بدأت مرحلة جديدة، صارت الحكاية أكثر كلاسيكية، متسلسلة زمنيا تقريبا، بيد أننا ما زلنا لا نتوفر على أي تحديد دقيق للتواريخ. تنتظم الحكاية حول تعلم القرآن ثم الفية ابن مالك. التقدم ليس منتظما، عملية حفظ النصين كانت طويلة ومملة، المحن والاختبارات عديدة، بشكل خاص كل هذه «الاختبارات» التي كان يخضعه لها معلم الكتاب، ولكن لم يثمر أي منها على تحول حاسم. ليس هناك فصل واضح بين «ما قبل» و «ما بعد»، ولكن مثل نفس داخلي طويل ومتكرر يحدد إيقاع النص إلى نهاية الفصل الثالث عشر مع تناوب بين الذكرى والنسيان توالي فترات يتمكن فيها الصبي من حفظ القرآن في كتاب القرية وفترات يترك فيها وشأنه، فينسى كل ما حفظه. تنتهي هذه المرحلة بنصر مزدوج: حفظ الصبي للقرآن وبتصديه لدراسة الألفية ارتقى إلى مستوى أعلى من ذلك الذي لمعلم الكتاب القرآني، إذ أن هذا الأخير لم يكن يعرف من الكتب كتابا آخر غير القرآن الذي لم يكن، والحال هذه، يفهمه حقا. الدروس التي تابعها الصبي فيما بعد لدى قاضي البلدة تبين أنها هي الأخرى غير كافية: لم يتمكن القاضي على امتداد مدة طويلة من تحفيظ الصبي ما توصل أخوه العائد من الأزهر من تلقينه إياه في أيام عدة. قدم ممثلو البلدة كل ما في استطاعتهم للصبي الذي، حتى يتمكن من متابعة مساره على طريق المعرفة عليه أن يتوجه إلى مساعد جاء مباشرة من العاصمة المصرية. كل التعلم

في البلدة صار في حكم المنتهي وراح يميل لكي يصبح خطوة كبيرة نحو «الأمام».

كما لو أنه يريد إعلان النهاية القريبة لهذا الـ «ما قبل» الكبير الذي يتصل على مدى تسعة فصول، تتوقف الحكاية لكي تترك المكان لتأمل واسع عن العلوم التقليدية ومن يمثلها في البلدات والريف المصري، لوحة تجسدها سخرية حادة.

يتواصل هذا التأمل على مدى ثلاثة فصول (١٤ إلى ١٦) تشدد على التباين بين الحظوة التي تخص بها الساكنة المحلية أشباه العلماء هؤلاء والواقع المريع لجهلهم الفادح. يقدم الخطاب نفسه مثل برهنة منظمة. «علم» هؤلاء المشعوذين ينزل إلى مستوى بضاعة بسيطة يتاجرون فيها، مستغلين في ذلك جهل الساكنة:

«للعلم في القرى ومدن الأقاليم جلال ليس مثله في العاصمة ولا بيئاتها العلمية المختلفة. وليس في هذا شيء من العجب ولا من الغرابة، وإنما هو قانون العرض والطلب، يجري على العلم كما يجري على غيره مما يباع ويشترى» [١٦].

من الفقهاء إلى شيوخ الزوايا، إلى حفظة القرآن والغموضيين ممن يتعاطون للعلوم الباطنية، كل مراتب المعرفة في القرى المصرية فاقدة لكل اعتبار. يتناول الخطاب أخيرا السحر «علم» ينظر إليه باعتباره في نفس مستوى العلوم السابق ذكرها.، ويميل البرهان إلى إثبات انه في الواقع المعيش، لا ينفصل عنها، لأن ممارساته وأهدافه تختلط بتلك التي للعلم الروحاني. يجد هذا الخلط ما يدعمه في المقطع الذي يختم الفصل السادس عشر؛ كان على الصبي أن يستعيد ذكريات ترتبط بحالة الساكنة خلال عيد «شم النسيم» عيد عودة الربيع، فترة الحبور والمتعة، ولكنه أيضا بداية الخمسين يوما التي يخشى فيها هبوب ريح الخمسين، ريح رملية حارة، نتنة، ضارة بالصحة، ينظر إليها باعتبارها تحمل معها الأرواح الشريرة والجن. حفظة القرآن وأصحاب العلوم الشرعية يلجؤون حينها إلى ممارسات قليلة الاستقامة ويقترحون عدتهم وهي عبارة عن طلاسم الحماية مقابل عوائد مادية منتهزين فرصة جهل الساكنة وتطيرها، مساهمين بذلك في تكريس الحالة والحفاظ عليها كما هي. الذكرى تتكلم بذاتها إلى حد أنها تُتَوسل للقيام مقام الاستدلال، ولكن أيضا خاتمة نهائية لكل اللوحة التي تقدم حالة انحطاط العلوم في الأرياف المصرية.

في نفس الوقت تظهر اضطرابات هامة في السرد مع تدخل خطاب بضمير المتكلم عدة مرات[١٧]. هذا الظهور المتكرر والمفاجئ لا ترافقه هوية محددة. بالتالي، ليس فيه ما يخالف المشروع السردي الأولي. تفكيك شفرة الضمائر لا يتم إلا مع الكلمة النهائية للكتاب فقط، مع إمضاء المؤلف [١٨]. التعديل الحقيقي في الحكاية أثاره ظهور الراوي واستعادته من «هو» وظيفة الإدارة التي كان قد فوضها له إلى حد الآن (كان الـ «أنا» يقف إلى حد الساعة عند حدود تسجيل ذكريات «هو» الراشد). يغيب «هو» الراشد مؤقتا لكي يترك حاضرا الراوي، المتحكم وحده في الاستدلال أمام المروي له، والصبي الذي تستدعى ذكرياته لدعم الخطاب.

«أما أنا فلا أستطيع إلا أن أحدثك بما يذكر الصبي» [١٩]

قد يتوقف منطق من خارج النص على المفارقة الغريبة التي تتمثل في جعل هذا «الصبي» المنتمي للماضي والذي انبعث في ذاكرة «هو» الراشد، مؤتمنا على هذه الذاكرة ومصدر نقل الذكرى، في اللحظة الحاضرة، إلى الراوي. بهذه الوسيلة يحصل التطابقين «هو» الصبي و «هو» الراشد. سرديا، تم تجاوز حدود مرحلة جديدة. في المرحلة السابقة (من الفصل ٥ إلى الفصل ١٣)، تناوب نسيان / ذكرى الذي كان في بداية الكتاب وقف على «هو» الراشد، صار يميز «هو» الصبي: الراشد الذي يبحث عن تذكر ماض نسي،يطابقه الصبي الذي عليه تذكر نص حفظه ثم نسيه. يتقارب المستويان من بعضهما هكذا، في إشارة إلى تقدم أكيد على الطريق الذي يرمي إلى جمعهما لكي يخرج «أنا» محدد الهوية إلى الوجود. تم تجاوز مرحلة إضافية مع الانتهاء من حفظ القرآن والألفية: في الفصول من ١٤ إلى ١٦ التي تحتل حيزا واسعا في الحكاية، تتراجع حدة الفارق بين الصبي والراشد إلى درجة أن المستويين يصبحان في حالة تسمح بتبادل المواقع بينهما، وبالتالي فإن الصبي يستولي في مرات عديدة على وظائف كانت في السابق ترجع للراشد:

«ومهما نسي الصبي فلن ينسى ليلة غلط فيها أحد المنشدين ...» [٢٠]

«ومهما ينسى الصبي فلن ينسى تأثير هذه الغضبة ...» [٢١]

«وقد نسي الصبي أشياء كثيرة، ولكنه لم ينس هذا الرعب الذي ملأ قلوب الناس ...» [٢٢]

شاهد أخير على هذه المرحلة، يتذكر الصبي، الآن، «ما بعد»، حالة ساكنة البلدة في الفترة التي تسبق عيد «شم النسيم» ومجيء الخمسين. البلدة بكاملها، بحفظة القرآن والمتصوفة

والعلماء تجد نفسها وقد ألقي بها في عالم «ما قبل» المعرفة، عالم تهيمن عليه كل أشكال التطير والطقوس السحرية وأن العلم الحقيقي مبعد عنها بشكل تام. لا يثير النص هكذا إلا الاستعدادات للمناسبة، الفرح الذي يسبق العيد والخشية المتطيرة مما يتبعه، المحن التي تأتي بها، في متخيل الساكنة، الأرواح الشريرة التي تحملها الريح والتي يجب الاحتماء منها. في مواجهة الساكنة التي التقطت صورتها بوجه عام في مرحلة «ما قبل» المحنة، يضع الصبي نفسه في «ما بعد» يجعله يقطع الزمان، يتخلص من الماضي ويصل إلى حاضر مزامن للسرد يتفحص من خلاله، بسخرية، اللوحة التي تقدمها ذاكرته لدعم استدلال الراوي.

بهذه اللوحة عن الاستعدادات لعيد «شم النسيم»، تختتم مجموع الفصول المخصصة للعلوم في الأرياف المصرية. «هو» الصبي الذي خرج من هذا الوسط مدعو للالتحاق بالراشد. اختبار أخير حاسم، سيجعله ينقلب نهائيا إلى الجانب الأخر، في «ما بعد» الذي يصير معه كل ما سبق إلى «ما قبل» كبير ينتهي بهذه الكلمات:

«وكذلك اتصلت أيام الصبي بين البيت والكتاب والمحكمة والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر، لا هي بالحلوة ولا هي بالمرة، ولكنها تحلو حينا وتمر حينا آخر، وتمضي فيما بين ذلك فاترة سخيفة. حتى كان يوم من الأيام ذاق فيه الصبي الألم حقا ...»[٢٣].

هذه المحنة الكبرى كانت هي محنة اللقاء بالموت الذي غيب على التوالي عددا من المقربين، بشكل خاص أخاه، الذي قضى خلال انتشار وباء الكوليرا. كل «ما قبل» الخارج عن الزمان للحكاية ينتهي على هذا التاريخ المتكرر ليوم الخميس ٢١ غشت ١٩٠٢ الذي شاهد وفاة أخيه على الساعة الثالثة بعد الظهر (ص ١٢٦، ١٢٨، ١٣١). كل ما يلي يحدد في «ما بعد» الذي يمتد إلى اللحظة الحاضرة، «هو» الصبي و «هو» الراشد يوجدان من الآن فصاعدا متداخلان مع بعضهما في تقاسم ألم جاء ليرخي بضلاله على كل ساعة من كل يوم يمر. يلتحق الصبي هكذا، في هذا الـ «ما بعد»بالراوي، يوجه كلامه إليه من القاهرة حيث انتقل، (ص ١٤٤) منذ خريف نفس هذه السنة ١٩٠٢، لمتابعة مسعاه بحثا عن العلم والمعرفة.

«وقد أقسم لي بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم»[٢٤].

الراوي الذي التحق به هكذا الصبي يندرج من الأن فصاعدا بشكل كامل في الحكاية لكي يكشف، في الفصل الأخير الذي صيغ على شكل إهداءات، عن هويته المستعادة. زمان هذا الكشف لم يعد هو الزمان الذاتي، زمان الذاكرة التي تركت وشأنها وقد تم العبث بها في عالم من المعتقدات والتطيرات، ولكن زمان الذكرى المؤرخة، المدجنة من قبل العقل والتي اقتيدت لتنتظم حتى تخضع للضبط الذي يمكنه وحده أن يصل إلى المعرفة العقلانية، تلك التي يريد أن يرتكز عليها المؤلف وهو يحكي ذاته.

الطريق المرسوم، فضائي، زماني وداخلي، قاد من نقطة بداية، ميلاد الذكرى من رحم النسيان، إلى نقطة قصوى، محددة، التماهي الواعي، العقلاني، المكرس لنهاية طريق نحو العقل وعقل يستدعي ذاكرة لكي يبرر ذاته في وجه العالم، وهو أيضا علامة مقترحة لمجتمع لكي يولد من جديد لذاته، وأن ينتقل من عصر المتخيل الأسطوري المنغلق على ذاكرته الخاصة إلى نضج نظرة علمية وعقلانية على العالم. المجلد الأول من ثلاثية «الأيام» هو مسار منجز، إذا اعتبرنا أن مشروعه الأولي تمت إدارته بشكل ناجح. هو في خضم ذلك أيضا ثمرة مسعى ترجمة ذاتية مضطلع بها. إلا أن الترجمة الذاتية هي في ذاتها حكاية مفتوحة دائما على انتظار. تركت الحكاية الصبي المراهق عند مدخل جامع الأزهر؛ سجل الحكي انتصارا في معركة استعادة الـ «أنا». إلا أن هذا النصر هو نصر مؤقت، يجب دائما أن يتحقق من جديد، مبرزا ما يسميه فيليب لوجون«ميزة الشخص: التوتر بين الوحدة المستحيلة والانقسام الذي لا يحتمل، والقطيعة الأساسية التي تجعل من الذات المتكلمة كائنا في حالة هروب». يمكن أن يلي المجلد الأول من «الأيام» المجلدان الآخران، الثاني والثالث، كل واحد منهما يبرز وجهة نظر مختلفة ومسار خاص، ولكنها تشترك في مسعى ترجمة ذاتية مشتركة. مع هذا النص، فإن الأدب العربي انفتح بشكل حقيقي على الترجمة الذاتية. ولكن أيضا أثرت البراعة وتعقيد سياق إعادة بناء الذكرى في هذه الترجمة الذاتية الأدبية بعمق في انطلاق التخييل العربي. جزء واسع من النقد العربي ذهب إلى حد أنه رأى في «الأيام» نصا يكرس ميلاد الكتابة الروائية وسط الثقافة العربية.

هوامش

١. هكذا، عندما أكد سامح كريم بأنه «في ١٩٣٥، أصدر طه حسين كتابه الروائي الثالث تحت عنوان «أديب» (كريم، ص ١٢٥)، جاء عبد المحسن طه بدر ليؤكد بأن «أديب حتى ولو أنه يتميز إجمالا في الظاهر عن كتاب «الأيام» يمكن اعتباره الجزء الثالث منها: يقدم لنا بالفعل جوانب من حياة طه حسين أكثر من تحليله لشخصية أديب» (عبد المحسن،

١٩٨٣، ص ٣٢٠).

٢.في تصنيفه لآثار طه حسين لم يدرج، حمدي السكوت «الأيام» ضمن أعماله الروائية، بخلاف «أديب» (السكوت وجونس، ١٩٨٢). على خلاف ذلك، يؤكد سامح كريم بأنه مع هذا الكتاب «ولدت الرواية المصرية شرعيا. اعترفت بأبيها وانتسبت إليه، وأنه في اليوم الذي حصل فيه هذا الحدث العظيم، لم يتردد رائد كبير مثل الدكتور هيكل في الاعتراف بأبوة روايته الخاصة [...]. من هنا جاء الدور الذي لعبه طه حسين من دون أن يكون، بطبيعة الحال هو أول من كتب الرواية في مصر. فقد سبقه إلى ذلك آخرون، مع ذلك، يبقى أن فضله يأتي من حيث أنه عرف كيف يؤكد وجود هذا الجنس، والدعوة له صراحة، وتبنيه بشجاعة (كريم، ص ١٢٠). شكلت المسألة من جهة أخرى، موضوع نقاش طويل بين النقاد مثل عبد المحسن طه بدر، ثروت أباظة وغيرهما.

٣.بحسب عبارة إليزابيت بروس Elisabeth BRUSS، ١٩٧٤.

٤.يجب أن يفهم من لفظة «ما قبل النص» كل الوثائق والمسودات التي سبقت النص النهائي، الرسائل والوثائق حيث تم تناول المشروع. فحصها يسمح بمواجهة مثمرة بين مختلف مراحل إعداد الأثر (لوجون Lejeune، ١٩٨٠، ص ٦٣ – ٦٤).

٥.طه حسين «أنا لا أكتب وإنما أملي»، مقالة بالفرنسية نشرت بمجلة إفورEffort، عدد أكتوبر ١٩٣٤، ترجم النص إلى العربية ونشره محمودي عبد الرشيد، ١٩٩٠، ص ٢٨.

٦.شكلت سنوات تكوين طه حسين موضوع دراسة أنجزها عبد الرشيد محمودي، وهي الدراسة التي نحيل إليها هنا. [يبدو أن المؤلف وقع في خلط، إذ يحيل على شخص باسم سريSurry الذي قد يكون ألف كتابا عن سنوات تكوين طه حسين، ولكن هذا الاسم ليس باسم مؤلف معروف وإنما هو اسم مقاطعة بإنكلتره هي، في الواقع مكان نشر كتاب عبد الرشيد محمودي بعنوان: TâhâHusayn 's Education From the Azhar to the Sorbonne، المترجم].

٧.عبد الحميد العبادي، أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، عضو المجامع العربية بالقاهرة ودمشق، الدسوقي، ص ١٠٠.

٨.علي عبد الرازق: الدكتور طه حسين بمناسبة صدور كتاب «الأيام»، السياسة، عدد ١٧ يونيو ١٩٢٩، ويوسف حنا: ما أراه في كتاب «الأيام»، السياسة، عدد ٢٥ يونيو ١٩٢٩.

٩.بالنسبة للمقطع المترجم، طه حسين، ١٩٣٨، ص ٢٩.

١٠.نحيل إلى النص الذي نشرته دار المعارف، مصر، ١٩٤٧. الإحالات ستكون إلى هذا النص وكذلك إلى الترجمة الفرنسية التي أنجزها كل من جان لوسيرف وغاستون فييت: «كتاب الأيام»، غاليمار، ١٩٨٩، وهي طبعة مصورة عن طبعة ١٩٤٧.

١١.القرآن الكريم: سورة إبراهيم، رقم ١٤، الآية ٥.

١٢.أندري جيد: مقدمة للترجمة الفرنسية، «كتاب الأيام»، ترجمة جان لوسيرف وغاستون فييت، ١٩٨٩، ص ٩.

١٣.«الأيام»، ص ٤؛ الترجمة، ص ١٤

١٤.نفسه، ص ١٥؛ الترجمة، ص

١٥.نفسه، ص ٢٧؛ الترجمة، ص ٣٠

١٦.نفسه، ص ٧٩؛ الترجمة، ص ٦٦

١٧.يظهر ذلك خمس مرات في الكتاب قبل أن يبدأ الفصل الأخير ويحصل التماهي النهائي: مرة واحدة في الفصل ١٤ (ص ٨٧؛ الترجمة، ص ٧١)؛ مرتان في الفصل ١٦ (ص ٩٧، الترجمة، ص ٧٨؛ ص ١٠٩، الترجمة ص ٨٥)؛ مرة واحدة في الفصل ١٨ (ص ١٢٢، الترجمة ص ٩٥)؛ ثم مرة أخيرة في الفصل ١٩ (ص ١٤٤، الترجمة ص ١٠٧-١٠٨).

١٨.لا نتفق بالمرة بهذا الخصوص مع سعد الخادم الذي يرى في تدخلات الـ «أنا» عيوبا فنية (الخادم، ١٩٨٥، ص ٢٩).

١٩.«الأيام»، ص ١٠٩؛ الترجمة، ص ٨٥.

٢٠.نفسه، ص ٩٢؛ الترجمة، ص ٧٤

٢١.نفسه، ص ٩٢؛ الترجمة، ص ٨٢.

٢٢.نفسه، ص ١٠٧؛ الترجمة، ص ٨٣.

٢٣.نفسه، ص ١١٨؛ الترجمة، ص ٩٢.

٢٤.نفسه، ص ١١٤؛ الترجمة، ص ١٠٧.

المراجع

أ. باللغة العربية

١.حسين، سوزان: معك، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٤.

٢.حسين، طه: في الشعر الجاهلي، القاهرة، دار الهلال، ١٩٢٦.

٣.حسين، طه: مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، ١٩٣٨

٤.حسين، طه: الأيام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٧.

٥.الدسوقي، محمد: رسائل إلى طه حسين، مجلة العربي، عدد نوفمبر، ١٩٧٦.

٦.الدسوقي، محمد: أيام مع طه حسين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧.

٧.السكوت، حمدي؛ مارسون جونز: أعلام الأدب المعاصر في مصر، طه حسين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.

٨.عبد الغني، مصطفى: طه حسين والسياسة، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٨٦.

٩.عبد المحسن، طه بدر: تطور الرواية العربية في مصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣.

١٠.عبد الرازق، علي: الإسلام وأصول الحكم، القاهرة، ١٩٢٥.

١١.علبي، أحمد: طه حسين رجل وفكر وعصر، دار الآداب، ١٩٨٥.

١٢.كريم، سامح: ماذا يبقى من طه حسين، بيروت، دار القلم، بدون تاريخ.

١٣.محمودي، عبد الرشيد: من الشاطئ الآخر، طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقا، شركة المطبوعات والتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٠

ب. باللغات الأجنبية

1.ARMELLE, Aliette : Marguerite Duras et l'autobiographie, Paris, Le Castor astral, 1990.

2.BERQUE, Jacques : Au-delà du Nil, Paris, Gallimard, 1977.

3.BRUSS, Elisabeth : L'autobiographie considérée comme acte littéraire, in Poétique n° 17, Seuil, 1974.

4.DIDIER, Béatrice : Autoportrait et journal intime, in Corps écrit n° 5, Paris, PUF, 1983.

5.EL KHADEM, Saad:History of the Egyptian novel, his rise and early beginnings, York Press, Canada, 1985.
6.Hussein, Taha : Le livre des jours, trad. de l'arabe par Jean Lecerf et Gaston Wiet, Gallimard, 1989.
7.LAMOURETTE, Christiane : Aspects de la vie littéraire égyptienne entre les deux guerres mondiales,in Annales islamologiques,Le Caire, Institut Français d'archéologie Orientale (IFAO), 1978, tome XIV, pp 217 -270.
8.LEJEUNE, Philippe, 1980, Je est un autre, Paris, Seuil, 1980.
9.MAHMOUDY, Abdelrashid: TâhâHusayn 's Education - From the Azhar to the Sorbonne, Curzon Press, Ritchmond Surrey, 1998.
10.VALÉRY, Paul, Variété : Inspirations méditerranéennes, Œuvres complètes, La Pléiade, tome I.
11.VIAL, Charles : « Kissa », in Encyclopédie de l'Islam, 2e édition, vol. 5, Leiden, Brill, 1986.

هوامش الترجمة:

❖تحيل قضية دريفوس إلى أزمة سياسية كبيرة عاشتها فرنسا تحت الجمهورية الثالثة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتدور أحداث هذه الأزمة حول توجيه الاتهام في ظروف ملتبسة للقبطان دريفوس من أصول يهودية بالتخابر مع ألمانيا وتمكينها من وثائق عسكرية غاية في السرية وهو الأمر الذي لم يثبت. وقد عرف المجتمع الفرنسي خلال أطوار هذه القضية التي عمرت من ١٨٩٤ إلى ١٩٠٦ انقساما حادا ومواجهات عنيفة، بشكل خاص عبر الصحافة، بين مؤيدي ومناهضي القبطان دريفوس على خلفية معاداة السامية والتي ستنتهي بتبرئته وإعادة الاعتبار إليه من كل ما نسب إليه من اتهامات.

تعريف بالمؤلف:

لوك فيلي دهوفولسLuc-Willy DEHEUVELS، أستاذ بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية (باريس) ومدير مركز دراسات وأبحاث الشرق الأوسط والمتوسط. من أبحاثه المنشورة: اللغة العربية المعاصرة، جزآن، باريس، ١٩٩٦؛ الإسلام والفكر المعاصر في الجزائر، مجلة الأصالة، ١٩٧١ – ١٩٨١، باريس، ١٩٩١؛ الخيمياء وبنية المتخيل في رواية السد لمحمود المسعدي، ضمن كتاب لتكريم جمال الدين بنشيخ، باريس، ٢٠٠١؛ التاريخ والملحمة الأدبية في التيارات الأصولية الجزائرية المعاصرة خلال السبعينيات، ضمن كتاب العرب والتاريخ الإبداعي، إدارة دومنيك شوفاليي، باريس ١٩٩٥...

